مطبوعات حديثة

المكتبة الاندلسية (١)

« او المكتبة العربية الاسبانية »

كاد الغربيون ان لا يتركوا كتاباً تستفاد منه نكتة في تاريخ العرب وآدابهم وعلومهم وسياستهم وفلسفتهم ودينهم الا وأحيوه بالطبع ، ليكون مداراً للحكم على مدنية كانت مادة المدنيات الحديثة وناقلة المدنيات القديمة . ومما نشر في تاريخ رجال الاندلس مجموعة في تراجم رجال الحديث والفقه وغيرهما من علوم الشريعة والادب لمؤلفين مختلفين وسماها ناشراها المكتبة العربية الاسبانية (F, Codera et J. Ribera: Ribliotheca Orabico-Hispana.) فقد طبع كودرا وريبرا من مستعربي الاسبان في مدينة مجريط (مادريد) اول كتاب من هذه الكتب منذ سنة ١٨٨٢ م وهو كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم تأليف ابي القاسم خلف بن عبدالملك بن بُشكوال جعله على حروف المعجم ككتاب ابن الفرضي وعلى رسمه وطريقته واختصر فيه التراجم فجاء في مجلدين يحويان تراجم ١٤٤٠ رجلاً من تلك الطبقات في ٦٥٠ صفحة ما عدا الفهارس التي أُلحقت به .

والمجلد الثالث اسمه بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس علمائها وامرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممن دخل اليها او خرج عنها مما وشّى به رياض الحميدي ونمنم ، والحم سداه وتمم ، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي وفيه ١٥٩٥ ترجمة في ٥٣٢ صفحة عدا الفهارس .

والمجلد الرابع اسمه المعجم في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي مما عني بجمعه ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي المشهر بابن الاباد وفيه ٣١٥ ترجمة في ٣٢٤ صفحة عدا الفهارس .

والمجلد الخامس والسادس هو كتاب التكملة لكتاب الصلة جمع ابي عبد الله

(١) سأل بعضهم وصف المكتبة الاندلسية التي نشرها بعض علماء المشرقيات من الاسبان فكتب الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع هذه المجالة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار ايضاً وفيه ٢١٥٢ ترجمه في ٧٥٦ صفحة .

والمجلد السابع والثامن في تاريخ علماء الاندلس تأليف ابي الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف الازدي الحافظ المعروف بابن الفرضي وقد حوى ١٧٦٦ ترجمة في ٥٣٤ صفحة ما خلا الفهارس .

والمجلد التاسع والعاشر هو فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف ابو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الاشبيلي وقع في ٤٦٣ صفحة وقد طبع هذا الكتاب في سرقسطة سنة ١٨٩٣ وبه تمت المكتبة الاندلسية . او الذي وصلنا لنا منها طبع في زهاء عشر سنين عشرة مجلدات فيها تحريف وسقط ولكنه يغتفر الى جنب ما هناك من العناية ، ولا سيما الفهارس في اسماء الرجال والبلدان وغيرها مما ورد في كل مجلد ، شأن الكتب التي طبعها الفرنج من كتبنا العربية في بلادهم وغير بلادهم .

هذا العمل عظيم في ذاته لانه يوقف على تراجم رجال عنوا خاصة بالرواية والفقه وسير المشتغلين بهما وهي على اختصارها تمثل صورة مجسمة من صور تلك العصور في ديار الاندلس ، وكأن كتاب الصلة لابن بشكوال وبغية الملتمس للضبي والمعجم لابن الأبار والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ايضاً وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي — كأن هذه الكتب التي ألفت منها المكتبة الاندلسية كتبت بلهجة واحدة او هي لمؤلف واحد فيها الاختصار الذي يكاد يكون الى الخلل أحياناً ، وليس فيها من البراعة في الوصف ما في كتاب الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام الذي صوّر شعراء الاندلس تصويراً كأنك تراه او ابن الخطيب في الإحاطة او ابن خاقان في القلائد والمطمح .

ومع كل هذا فقد ظهرت بهذه الكتب صورة مصغرة من حالة تلك الاعصر من الوجهة الدينية والعناية بعلوم الشرع ، ولاسيما رواية الحديث التي كان لها شأن عظيم في القديم يرحلون بسببها ويتحملون انواع المشاق ويتحرون الصدق في الرواة خذ لك مثالاً من تاريخ ابن الفرضي قال في ترجمة : « عبد الله بن عبد السلام المعروف بابن قلمون من اهل قرطبة : سمع من ابن وضاح وغيره من أهل العلم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانقطع الى الله عزّ وجلّ ورفض الدنيا وهرب بنفسه ورحل الى المشرق فسلك مسلك عباد المشرق ، وجاور بمكة فلم يزل على منهج الابدال حتى لقي الله عزّ وجلّ ورد نعيه الاندلس سنة ٣٠٢ هـ .

وقال في ترجمة : « عبد الله بن وهب من أهل طليطلة رحل فسمع من علي بن عبد العزيز ومن عبد الله بن ابي مسرة وغيرهما وسكن مكة احد عشر عاماً واكثر من الرواية عن رجالها وعن المصريين وكان مألفاً لمن قدم عليه مكة من آفاق بلاد المسلمين من طلاب العلم والعباد ، حتى كان لايشك انه اعلى من يدخل الاندلس من اهلها ، فقدم الاندلس ولم يلبث ان مال الى الدنيا فأمسك الناس عن الاخذ عنه لذلك توفي سنة احدى او اثنتين وثلاثمائة ذكره خالد » .

ولو اردنا الالماع الى ذكر من وصفهم هؤلاء المترجمون بالتقوى والاعتزال عن الناس والزهد في الدنيا وان فلاناً كان مسموع الدعاء وان فلاناً من أبطال الابدال لطال بنا المطال ، وهاك نموذجاً آخر لابن الفرضي فيمن خالف الجمهور في رأيه : محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح من أهل قرطبة يكنى ابا عبد الله سمع من ابيه ومن محمد بن وضاح والخشني وخرج الى المشرق في آخر ايام الامير عبد الله رحمه الله . قال لي الخطاب بن مسلمة : اتهم بالزندقة فخرج فاراً وتردد بالمشرق مدة فاشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الاندلس فأظهر نسكاً وورعاً واغتر الناس بظاهره فاختلفوا اليه وسمعوا منه ، ثم ظهر الناس على سوء معتقده وقبح مذهبه فانقبض من كان له ادراك وعلم ، وتمادى في صحبته آخرون غلب عليهم الجهل فدانوا بنحلته وكان يقول بالاستطاعة وانفاذ الوعيد ويحرف التأويل في كثير من القرآن وكان مع ذلك يدعي التكلم على تصحيح الاعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق في نحو من كلام ذي النون الاخميمي وأبي يعقوب النهرجوري ، وكان له لسان يصل به الى تأليف الكلام وتمويه الالفاظ ، وإخفاء المعاني وقد ردّ عليه جماعة من أهل المشرق منهم أحمد بن محمد بن زياد الاعرابي وأحمد بن محمد بن سالم التستري ولأحمد بن خالد في الرد عليه صحيفة أخبرنا بها عنه ابو محمد الباجي وقال ابن حرث : الناس في ابن مسرة فرقتان فرقة تبلغ به مبلغ الامامة في العلم والزهد وفرقة تطعن عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالبدع ، لماظهر من كلامه بالوعد والوعيد ، ولخروجه عن العلوم المعلومة بارض الاندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم ، وقال لي الباجي : توفي محمد بن مسرة سنة ٣١٩ وهو ابن خمسين سنة وثلاثة اشهر .

هذه ترجمة نابغة اعمل رأيه فخالف الجماعة فكان جزاؤه ما رأيت من التشنيع عليه ، وكم قام في رجال الاندلس وغيرها اناس فاخفت التعصب من اصواتهم فوقفوا في منتصف الطريق مكرهين ، واغضوا على القذى آسفين ، وقتلوا بما قالوا . ولو أبقي عليهم ممتعين بحريتهم لنهضوا بعقول الامة درجة او درجات الى الامام .

وهكذا تجد مؤلفي هذه التراجم متعصبين على من تميز من اهل عصره بعلم او نظر عادة قديمة لعلماء المنقولات من الجامدين في معاداة علماء المعقولات من المجددين . فقد ترجم مثلاً ابن الابار ابا العلاء بن زهر احد حسنات الاندلس كما يترجم رجلاً عادياً من ارباب الزهد والانقطاع او الرواية الخفيفة ، فمما قاله فيه : انه نشأ بشرق الاندلس وبقايا داره بحصن شاطبة ولم تزل معروفة به الى ان تملكها الروم واجلوا عنها المسلمين وذلك في رمضان سنة ٦٤٥ ... ومال الى علم الطب الذي أخذه عن أبيه فجهر فيه وأنسي من قبله احاطة به وحذقاً لمعانيه حتى أن أهل المغرب ليفاخرون به وباهل بيته في ذلك ... وحل من السلطان محلاً لم يكن لاحد من أهل الاندلس في وقته وكانت له رياسة بلده ومشاركة ولاته في التدبير وكان مع أمامته في الطب مقدماً في الادب ... ومما قاله في الزهد وأمر أن يكتب على قبره :

ترحم بفضلك ياواقفاً ... وابصر مكاناً دفعنا اليه
تراب الضريح على صفحتي ... كأني لم امش يوماً عليه
أداوي الانام حذار المنون ... فهاءنا قد صرت رهناً لديه

وتوفي بقرطبة منكوباً واحتمل الى اشبيلية فدفن بها سنة ٥٢٥ .

وهكذا يوجز أرباب هذه الكتب في تراجم النوابغ في غير علوم الشريعة فقد كتب ذاك المؤلف أيضاً في ابن الحناط الكفيف (المقتبس م ١ ص ٣١٣) الذي هو ثاني المعري أو قرينه ما يأتي : محمد بن سليمان الرعيني الكفيف من أهل قرطبة يعرف بابن الحناط ويكني أبا عبد الله كان عالماً بالأدب قائماً على اللغة العربية شاعراً مفلقاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يشارك في الطب وغيره وشعره مدون وله الرسالة المبرجانية التي سماها بوشي القلم وحلي الكرم بعث بها الى الحاجب المظفر ابي بكر بن الافطس وهي من الرسائل البديعة، وكان أول ظهوره ونجومه في الدولة الحمودية بقرطبة، واليهم هاجر وبهم لحق، لما خاف من أبي الحزم بن جهور وتوفي بالجزيرة الخضراء في جمادى الآخرة سنة ٤٣٧ ذكره الحميدي وغيره ووفاته عن ابن حيان اه .

وبعد فانا لا نلوم مؤلفي هذه التراجم على ايجازهم في تراجم غير رجال الحديث او الفقه ماداموا قد التزموا الايجاز، فقد رأيناهم فعلوا مثل ذلك في التعريف برجال الدين كما فعل بن بشكوال في ترجمة ابن المكوى الاشبيلي كبير المفتين بقرطبة الذي انتهت اليه رياسة العلم بها أيام الجماعة وغاية ما قال فيه : انه من أهل المتانة في دينه والصلابة في رأيه والبعد عن هوى النفس لايداهن السلطان، ولايميل معه بهوادة، ولا يدع صدقة في الحق اذا ضايقه، وكان القريب والبعيد عنده في الحق سواء، دعي الى القضاء بقرطبة مرتين فأبى ...

وكما اختصر ابن الفرضي في ترجمة عيسى بن دينار الغافقي وهو الذي كان يقول فيه محمد بن عمر بن لبابة : فقيه الاندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وعاقلها يحيى بن يحيى، ولو رزق هؤلاء المؤلفون بياناً في تصوير الرجال كما صور بن بشكوال ابن كوثر الانصاري لجاءت هذه من الكتب أمتع مايستفيد منه المستفيد قال: احمد بن سعيد بن كوثر الانصاري من أهل طليطلة يكنى أبا عمر كان فقيهاً متفنناً كريم النفس أخذ عن جماعة من العلماء ببلده وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة مع ابيه ذكره ابن مطاهر وقال : حدثني عبد الله بن سعيد بن أبي عون أنه قال : كنت آتي اليه من قلعة رباح وغيري من المشرق وكنا نيفاً على اربعين تلميذاً فكنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات، والحيطان باللبود من كل حول ووسائد الصوف، وفي وسطه كانون في طول قامة الانسان مملوءاً فحماً يأخذ دفئه كل من في المجلس، فاذا فرغ الحزب أمسكهم جميعاً وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب وأيام ثرائد اللبن بالسمن او الزبد فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها ويقدم بعد ذلك لوناً واحداً ونحن قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

روينا من ذلك الطعام فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح الى ذلك الطعام الثلاثة الاشهر ، فكان ذلك منه كرماً وجوداً وفخراً لم يسبقه احد من فقهاء طليطلة الى تلك المكرمة ، وولي أحكام طليطلة مع يعيش بن محمد ثم استثقله ودبر على قتله ، فذكر ان الداخل عليه ليقتله الفاه وهو يقرأ في المصحف فشعر انه يريد قتله فقال له : قد علمت الذي تريد فاصنع ما أُمرت فقتله وأُشيع في الناس انه مرض ومات رحمه الله وذكر ابن حيان انه مات معتقلاً بشنتر بن مسموماً سنة ٤٠٣ .

هذه نموذجات من المكتبة الاندلسية تبين درجتها في نفع المشتغلين بتاريخ تلك البلاد ورواتها وفقهائها وقد يأتي اولئك المترجمون في ترجمة الرجال باشعار بالمناسبة وربما ترجموا بعض النساء وهاك نموذجاً لابن بشكوال في ترجمة مريم الفيصولي قال : مريم بنت ابي يعقوب الفيصولي الشلبي الحاجة اديبة شاعرة مشهورة كانت تعلم النساء الادب وتحتشم لدينها وفضلها ، وعمرت عمراً طويلاً ، سكنت اشبيلية وشهرت بها بعد الاربع مائة ذكرها الحميدي وقال : انشدني لها اصبغ بن سيد الاشبيلي :

وما يرتجى من ابن سبعين حجة ... وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل يسعى الى العصا ... ويمشي بها مشي الاسير المكبل

قال الحميدي : واخبرني ان ابن المهذب بعث اليها بدنانير وكتب اليها :

مالي بشكر الذي اوليت من قبل ... لو انني حزت نطق الانس والخبل(؟)
يافردة الظرف في هذا الزمن ويا ... وحيدة العصر في الاخلاص والعمل
اشبهت مريماً العذراء في ورع ... وفقت خنساء في الاشعار والمثل

فكتبت اليه :

ماذا يجاريك في قول وفي عمل ... وقد بدرت الى فضل ولم تسل
مالي بشكر الذي نظمت في عنقي ... من اللآلي وما اوليت من قبل
حليتني بحلي اصبحت زاهية ... بها على كل انثى من حلي عطل
لله اخلاقك الغر التي سقيت ... ماء الفرات فرقت رقة الغزل
اشبهت في الشعر من غارت بدائعه ... وانجدت وغوت من احسن المثل
من كان والده العضب المهند لم ... يلد من النسل غير البيض والاسل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه البضعة الالوف من المترجمين من رجال الدنيا والدين الذين نشأوا في الاندلس وصرفوا اعمارهم في التعلم والتعليم هم لاجرم جزء ممن نشأوا في تلك الارض الطيبة التي دخلتها العرب سنة ٩٢ هـ ٧١١ م وخرجوا منها سنة ١٦٠٩ م خروجاً قطعياً اي انهم بقوا هناك ثمانية قرون كانت غرائب كلها سعودها اكثر من نحوسها في الجملة .